

الهدية ووظائف التبادل لدى المجموعة العمرية: دراسة إثنوغرافية لفهم الديناميكيات الاجتماعية والثقافية

Gift and Exchange Functions In the Maamariya Community: An Ethnographic Study of social and cultural Dynamics

زيان محمد

جامعة حسية بن بوعلي، الشلف (الجزائر)، m.zian@univ-chlef.dz

تاريخ النشر: 2024/11/10

تاريخ القبول: 2024/09/13

تاريخ الاستلام: 2024/07/02

ملخص:

يتناول المقال "الهدية والطعام واللباس" كعناصر أساسية في بناء العلاقات الاجتماعية في مدينة تنس، حيث تعبر الهدية عن الاحترام والتقدير، وتساهم في تعزيز العلاقات الاجتماعية وبناء الثقة. كما تُستخدم الهدايا للتواصل غير المباشر في بعض القضايا الحساسة، وتعتبر جزءاً مهماً من المناسبات الخاصة.

تركز الدراسة على تحليل وثائق الهدايا في حفلات الزواج لفهم العلاقات الاجتماعية في المجموعة العمرية. وتهدف إلى تحليل تأثير تبادل الهدايا على العلاقات الاجتماعية، وفهم تأثير التغيرات الثقافية على المجتمع، وتحليل الأنماط الاجتماعية التي تحكم التفاعلات بين الأفراد. اعتمدنا في الدراسة الميدانية على المنهج الإثنوغرافي باستخدام الملاحظة والمقابلات وتحليل الوثائق بمنهج تحليل المحتوى. حول المجتمع المعمر، وهو جماعة ذات ثقافة قبلية تتبع تقاليد زواج "سيدي معمر أبو العالية" الذي حدّد صداق الزواج بربع دينار ذهبي لتسهيل الزواج بسبب الفقر، وتعكس الدراسة أهمية الهدايا في تعزيز الروابط الاجتماعية والانتماء الثقافي.

كلمات مفتاحية: الهدية؛ إرجاع الهدية؛ التعويض؛ الزواج؛ سيدي معمر.

Abstract:

The article discusses "gifts, food, and clothing" as essential elements in building social relationships in the city of Ténés. Gifts signify respect and appreciation, contributing to the strengthening of social ties and the building of trust. They are used for indirect communication in sensitive matters and are an important part of special occasions. The study focuses on analyzing gift documents from wedding ceremonies to understand social relationships in the Maamriya community. It aims to analyze the impact of gift exchange on social relationships, understand the cultural changes' impact on society, and analyze the social patterns that govern interactions among individuals.

The study relies on an ethnographic approach using observation, interviews, and document analysis. The Maamriya community is a tribe with a shared culture that follows the marriage traditions of "Sidi Mâamr Abu Al-Aliya," who set the dowry at a quarter gold dinar to facilitate marriage due to poverty. The study highlights the importance of gifts in enhancing social bonds and cultural belonging.

Keywords: Gifts; Returning the gift; Compensation; Marriage; Sidi Mâamr.

مقدمة:

لفت انتباهنا ضرورة الاشتغال في موضوع أنثروبولوجي حول «الهدايا والطعام واللباس»، نظراً للعلاقة التي تجمع بين هذه العناصر الثلاث في بناء العلاقات الاجتماعية والتراتب بين الرجال والنساء وللروابط الشديدة التعقيد التي يصعب على الباحث ملاحظتها بطريقة بسيطة دون التدقيق والتعمق في كشف العلاقات التي تجمع بينها وتنصهر في بوتقة ثقافية، دراسة الهدية كرمز للتبادل الاجتماعي، وك رمز للضيافة والمشاركة، وك رمز للهوية والطبقية، سنكتشف كيف تعبر هذه العناصر عن القيم الثقافية والمساهمة في بناء الديناميكيات الاجتماعية في المجتمع المحلي المدروس.

يشكل إعطاء الهدايا في الثقافة العربية إشارة إلى الاحترام والتقدير نحو الآخرين، فعندما يقدم فرد ما هدية لشخص آخر، فذلك يعكس التقدير والاعتزاز بهذا الفرد وبالعلاقة بينهما. كما تساعد الهدايا على تعزيز العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والعائلات والمجتمعات وبناء الثقة بين الأفراد، في بعض الأحيان، يُستخدم تقديم الهدايا كوسيلة للتواصل غير المباشر في بعض القضايا الحساسة أو الصعبة. على سبيل المثال، فقد يقدم الشخص هدية للاعتذار من فعل ما أو للتعبير عن المشاعر دون الحاجة إلى الكلام المباشر.

إن الهدايا جزء لا يتجزأ من المناسبات الخاصة مثل: الأعياد والأفراح والمناسبات الدينية، في هذه الأوقات، يكون إعطاء الهدايا عادةً مرتبطاً بالتقاليد والعادات الاجتماعية، بشكل عام، يُعتبر إعطاء الهدايا في الثقافة الجزائرية تعبيراً عن السخاء والتقدير والتواصل الاجتماعي، وتلعب دوراً مهماً في تعزيز العلاقات الإنسانية والاجتماعية بين الأفراد، وبالتالي فضرورة تقديم الهدايا ليست أقل أهمية، ودراستها يمكن أن تجعلنا نفهم كيف أصبح الناس يمارسون التبادل، في المقابل يعد الامتناع عنها إهمالاً في حق الضيوف والأقارب والأحبة الذين تجمعنا معهم علاقات قرابة ومصاهرة وجوار هذا من جهة. من جهة أخرى لا ينبغي رفض الهدية، لأن ذلك يعني رفض المشاركة والتواصل والتحالف، وهو بمثابة إعلان للعداوة والتنافر والكراهة، على هذا الأساس ركزنا على مختلف أشكال التهادي بما فيها هدايا الزواج، لأنها جزء من نظام تبادل هدايا أوسع يضم مختلف أنواع الهدايا، وكل منها قد يؤثر على فهم النوع الآخر..

ما يهمنا في هذا المقال هو دراسة الهدية والوظائف التي تؤديها في مجتمع محلي بمدينة تنس- ولاية الشلف، ومحاولة فهم بعض جوانبها الاجتماعية والثقافية، من خلال نظام التهادي بصفة عامة على اختلاف المناسبات الاحتفالية أو اليومية، وانطلاقاً من الدراسة الميدانية التي تمثل أساس

البحث الإثنوغرافي، حول مختلف حفلات الزواج بتدوين وثائق إثنوغرافية تسجل طبيعة ومواصفات الهدايا التي يقوم الأفراد المدعوين بتقديمها بمناسبة الحفل، الأمر الذي سهل لنا دراسة الوثائق التي تحيل لطبيعة العلاقات التهادي والتزاور في المجموعة المعمرية. ومن هنا انطلقنا لتسجيل كل أشكال الهدايا في مختلف المناسبات، وطرحنا الإشكالية التالية:

كيف تؤثر ممارسات التبادل عبر الهدايا في بناء وتعزيز العلاقات الاجتماعية داخل المجموعة المعمرية؟

تتفرع عنها التساؤلات التالية:

- ما هي المعاني الرمزية التي تحملها الهدايا في المناسبات الاجتماعية المختلفة؟
- وكيف تنعكس الهدايا القيم الثقافية للمجتمع؟
- وكيف تسهم الهدايا في تحسين العلاقات بين الأفراد وتوزيع السلطة والموارد بينهم؟

1. الهدف من الدراسة:

هدفت دراستنا إلى

- تناول كيفية تأثير ممارسات تبادل الهدايا في بناء العلاقات الاجتماعية، مثل: تغيير القيم الثقافية وإعادة توزيع الموارد والسلطة.
- تحليل تأثير التغيرات الثقافية على المجتمع، وفهم كيفية انعكاس هذه الديناميكيات على الهوية الثقافية والمجتمعية للمجموعة.
- محاولة فهم الأنماط الاجتماعية التي تحكم التفاعلات بين الأفراد والجماعات مثل: الصداقة، القرابة والتحالفات.
- محاولة فهم التغيرات في عادات وتقاليد تبادل الهدايا التي تشير لتحولات كبرى في المجتمع مثل العولمة والتحديث، أو تحولات القيم.

2. أهمية الدراسة:

تكمن أهمية المقال في التركيز على كون الهدية ليست مجرد نشاط منفصل في المجتمع، بل نظام من العمليات الاجتماعية المترابطة التي تعكس وتعزز العلاقات بين الأفراد والمجموعات في المجتمع، وبناء لذلك نحاول القيام بتحليل دور الهدية في تعزيز التبادل وتكوين الروابط الاجتماعية وتعزيز

الانتماء الاجتماعي داخل المجتمع المعمري، للوصول إلى فكرة مفادها أن الهدية ذات قيمة اجتماعية تتجاوز قيمتها المادية، وتعكس العديد من الجوانب الاجتماعية والثقافية مثل الاحترام، والتقدير، والولاء...

3. منهجية البحث:

بعد الإطلاع على أدبيات تتناول الهدية، والتي نورد لها عنصراً في متن الدراسة بغرض التوضيح والتأكيد على أهميتها العلمية وضرورة الإشارة إليها قبل تناول طبيعة الهدية في مجال الدراسة ومجتمع البحث، ثم ننتقل إلى ميدان البحث في المجتمع المعمري، ويمكن حصر مجاله في المناطق الجغرافية بمدينة تنس ولاية الشلف التي تنتشر فيها عادات «الزواج المعمري»، الذين يفضل أصحابه الانتساب للجد الرمزي «سيدي معمر»، وهم يتناقلون ذلك صراحة، وعليه كانت منهجية البحث معتمدة على المنهج الإثنوغرافي لوصف وتفسير كل ما يتعلق بهذه الجماعة باستعمال تقنيات متنوعة (الملاحظة بالمشاركة والمقابلة نصف الموجهة مع 20 فرد، 10 نساء و10 رجال وتم الاستعانة بهذه التقنيات ضمن مقارنة كيفية) وكذا أدوات التصوير الوثائقي، وتحليل الوثائق الإثنوغرافية التي كُتبت نجمها طيلة فترة البحث (لمدة إثني عشر (12) شهراً، حيث بدأ البحث بتاريخ 01 جويلية 2023 إلى غاية 01 جويلية 2024) رصدنا خلالها كمّاً هائلاً من الوثائق والصور والمعلومات، وعلى وجه الخصوص خمسة (05) وثائق تمثل مختلف سجلات الهدايا المقدمة من طرف المدعويين. وذلك بالاستعانة بمنهج تحليل المحتوى، حيث ساعدنا في تحليلها بعد وضع تسجيل مختلف الملاحظات في حواشي وهامش الوثائق بقصد التذكر، ثم الانتقال نحو الميدان ودراسة طبيعتها مرة أخرى، والتساؤل في كل مرة عن تكرارها وتداولها، لمعرفة غايتها وأهدافها، وكيفية اشتغالها.

4. مجتمع ومجال الدراسة (المجموعة المعمرية):

هي جماعة ذات ثقافة مشتركة بصيغة «قبلية تنتمي إلى أحد الأولياء الصالحين الذي وفدوا إلى منطقة من مناطق الجزائر الوسطى وأنشأ نظاماً زواجياً سُمي بـ «زواج سيدي معمر أبو العالية»، حيث يذكر أعيان وشيوخ مدينة تنس أنه حدّد صداق الزواج بربع دينار ذهبي (ربعا دورو) نظراً لعدة أسباب، وفي مقدمتها غلاء الصداق» (ZIAN, 2019, pp. 74-75)، حيث كان أهل المدينة يُغالون في تزويج بناتهم، وقيل أنهم كانوا يطلبون مقدار أوزانهم ذهباً صداقاً، مما أجبر الكثير من الشباب الذكور للعزوف عن الزواج بسبب الفقر والحاجة. وقد ساعد على ذلك تفشي مظاهر الحاجة والمجاعات

والأمراض الاجتماعية بين القرنين 15 و16م، وهو التاريخ التقريبي لظهور هذا الولي الرمز، وبغض النظر عن طبيعة القصص المنسوجة داخل نظامها الاجتماعي. سنحاول قدر الإمكان تحليل مختلف عادات التهادي الثابتة والمتغيرة في تراث هذه المجموعة قبل زوالها، «لأنها عادات مهددة بالزوال أمام واقع متأزم» (زيان، 2022، صفحة 65).

5. الهدية في الأدبيات الأنثروبولوجية:

1.5. الهدية أنثروبولوجيا:

تعني "الهدية" في اللغة العربية ما يقدم لشخص من غير مقابل، بغرض التعبير عن الحب أو التقدير أو الاحتفاء بمناسبة معينة، وتأتي الهدية من فعل "هدى" أي "أعطى" أو "وهب"، مرادفاتها: عَطِيَّة، نَحْلَة، تُحْفَة، مَنَّة، عُربون، وفي هذه الدراسة اخترنا كلمة هدية.

تعني الهدية اصطلاحاً بأنها كل شيء مادي أو معنوي يقدم لشخص آخر دون انتظار مقابل مادي، والهدف من تقديمها يمكن أن يعزز الروابط الاجتماعية خاصة في المناسبات المختلفة: أعياد، زواج، ميلاد، وفاة، نجاحات شخصية أو مهنية.

إن تقديم الهدية (Gift) إجراء اجتماعي أشبه بالعقد الذي يبرمه طرفان، لكن طبيعته رمزية ومعنوية أكثر منها مادية، لأن إبرامه لا يلزم ضرورة الردّ والإرجاع، أي أنه عقد يكتسي صفة اختيارية من الناحية النظرية، لكنه إلزامي من الناحية العملية، حيث تلزم صاحبه بالإرجاع أو الردّ، مما يعني أن رد الهدية ضروري لدوام العلاقة الاجتماعية بين الطرفين، كما يحيل كذلك أن الهدية هي إحدى طرق التبادل الاقتصادي في المجتمعات البدائية، إنها شكل من أشكال التبادل المادي غير التعاقدية.

2.5. الهدية عند مالينوفسكي (Malinowski) من خلال حفلة الكولا:

الكولا نظام تبادل حلقي للقلائد، والأساور الثمينة بين عدد من الجزر في ميلانيزيا، حيث يتم تبادل القلائد (Soulava) التي تتحرك في اتجاه عقارب الساعة والأساور (Mwali) التي تتحرك في الاتجاه المعاكس عبر شبكة من العلاقات الاجتماعية، والبحرية التي تربط بين المشاركين.

اكتشف مالينوفسكي ظاهرة الهدية من خلال حفلة "الكولا"، «عندما وجد نفسه في عزلة داخل الأرخبيل التروبرياندي، ولاحظ أن الأفراد الذين يسكنونه لم يكونوا منكفئين على أنفسهم. كما كان البعض يعتقد في ذلك العصر، بل كانوا يزاولون نشاطات ذات أهمية خاصة تربطهم علاقات خارجية مع الشعوب أخرى يتحدثون وإياها من أصل واحد، لكنهم يقيمون في جزر مجاورة لجزرهم»

(Lombard, 1998, p. 95)، فالكولا ظاهرة تبادلية، لها أثر عميق على حياة الأهالي الذين يشاركون فيها، فضلاً عن أنهم بالذات يدركون أهميتها كل الإدراك، إذ أن أفكارهم وطموحاتهم، ورغباتهم وإدعاءاتهم تتوقف جميعاً عليها.

يعرف مالمينوفسكي هذه الظاهرة بقوله «هي شكل من أشكال التبادل بين القبائل يتم في نطاق واسع (...) هي مؤسسة في غاية الاتساع والتعقيد، سواء من حيث الامتداد الجغرافي أو من حيث كثرة الجوانب التي تشتمل عليها، فهي تجمع جمعا وثيقا بين عدد كبير من القبائل وتشتمل على كل أنواع النشاطات المتداخلة التي يؤثر بعضها على بعض بحيث تشكل كلاً عضوياً واحداً» (Lombard, pp. 96-97). حيث يبين مالمينوفسكي أن الدوافع الاقتصادية ليست ذات قيمة كبيرة في مجال التبادل الاجتماعي، وأوضح أن قيمة السلعة المتضمنة في مجال التبادل الاجتماعي سواء كانت أساور أو عقود، هي ذات قيمة رمزية ومادية، حين تدور هذه النظرية حول ما تمثله بين الماضي والمستقبل وليس ما تستحقه السلعة في ذاتها. ومن هنا فإنه ينكر قيمة الدوافع الاقتصادية في مجال التبادل الاجتماعي، ويرى أن سلع التبادل الاجتماعي ذات قيمة رمزية فقط، وأن وظيفتها تتمثل في تأكيد التعاون والتساند والتضامن الاجتماعي بين الأفراد والجماعات المشتركة في عمليات التبادل الاجتماعي.

تعمل أشكال التبادل والتزاور والمساعدة في وقت الحاجة عوامل أساسية حسب - مالمينوفسكي - على تقوية التماسك الاجتماعي بين الجماعات، فنظام التبادل يتخلل البناء الاجتماعي، ويمكن بذلك اعتباره شبكة اجتماعية تشد أجزاء المجتمع بعضها إلى بعض وتجعلها في حالة متينة من التعاون والتساند، ويظهر ذلك بوضوح في المجتمعات البدائية التي تتميز بالبساطة بكل نظمها، حيث أنها تقوم بالتبادل عن طريق صور ومظاهر كثيرة منها تبادل فائض الإنتاج.

تبرز الكولا «أهمية التعامل بالمثل في الحياة المجتمعية التي تظل محكومة أبداً بلعبة أعطني لأعطيك، لذا يقول مالمينوفسكي: إن كل احتفال وكل فعل من الأفعال المألوفة يترافق مع شيء معين يعقبه أخذ شيء مقابلته. فالثروة التي تنتقل من يد إلى يد وفقاً لحركة ذهاب وغياب دائمة. تشكل واحداً من الأركان الأساسية التي يقوم عليها التنظيم المجتمعي، ومرجعية الرئيس، وصلات القرابة المباشرة أو المصاهرة» (الخطيب، 2020، صفحة 177).

على الرغم من أن نظام الكولا قد لا يكون موجوداً بشكل واسع في مجتمعات اليوم، إلا أن دراستها يمكن أن تقدم رؤى قيمة حول كيفية تشكيل الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية عن طريق التبادل والطقوس.

3.5. الهدية ونظام البوتلاش عند مارسيل ماوس (M, Mauss):

يمثل البوتلاش (Potlasch) نظام احتفالي لتبادل الهدايا، كان شائعاً بين شعوب السكان الأصليين في الساحل الغربي لأمريكا الشمالية مثل: الكواكيوتل والتلينغيت. يتميز بتقديم هدايا ضخمة وكريمة من قبل مضيف الحفل للضيوف، وغالباً ما يتضمن تدمير أو توزيع كميات كبيرة من الممتلكات لإظهار الثروة والكرم. فالبوتلاش «تعني الهبة أو العطاء، ضمن إطار احتفالي، وتدل كلمة بوتلاش على مجموعة مظاهر (احتفالات، رقصات، خطابات، توزيع تفاخري للثروات) انتشرت بين شعوب السواحل الذي هم صيادون، قناصون، قطافون، وتنظم الاحتفالات بمناسبة أحداث مهمة في حياة الفرد (ك الزواج، والدفن، والخلافة، والمسارة، وتغير الاسم بفعل تغير المركز)، وفي حالات المنافسة بين الزعماء (خاصة لدى الكواكيوتل)، وتجد هذه الاحتفالات تعبيرها الأفضل في توزيع خيارات المهابة، والغذاء، من قبل المضيف، على ضيوف مدعوين رسمياً بهدف حصوله على الاعتراف العام بامتيازاته العائلية» (بونت و إيزار، 2006، صفحة 311).

يرى ماوس أن البوتلاش «شأن مجتمعي كلي أو ظاهرة مجتمعية كلية، إذ أنه أكثر من ظاهرة حقوقية (...)»، إنه ظاهرة دينية أسطورية، لأن الرؤساء إنما يجسدون بأشخاصهم الآباء الأولين والآلهة، وهو ظاهرة اقتصادية بحيث ينبغي قياس قيمة هذه الصفقات الهائلة وأهميتها، والأسباب التي تدعوا إليها، والمضاعفات التي تنجم عنها» (Lombard, p. 114). وبالتالي يمكن القول أن هذه الظاهرة المجتمعية الكلية، هي ظاهرة تستنفر المجتمع بأسره ومؤسساته بمجملها، ولا يمكن فهمها إلا بإقامة العلاقة بين كل قطاعاته.

تعتبر الهدية حسب ماوس حدثاً اجتماعياً شاملاً، إذ ما «لفت انتباه موس في هذا المجال هو تلك الظاهرة الاجتماعية الشائعة التي ينخرط فيها جميع الناس، ونقصد تبادل وتملك الأشياء عن طريق الهدية. وسؤال موس هو لماذا يكون الرد على الهدية بالهدية ملزماً، رغم أن العملية برمتها تبدو، في الظاهر على الأقل، قائمة على مجانية الهدية وحرية قبولها أو الرد عليها؟ ما هو الشيء الخفي الذي يجعل علاقة الهدية علاقة متناظرة ملزمة» (موس، 2011، صفحة 13).

حلل ماوس «ظواهر التبادل في ميلانيزيا، وبولينيزيا وكولومبيا البريطانية، وما استرعى انتباهه هو طابع هذه التبادلات الإرادي، الذي يبدو في الظاهر حراً، لكنه يظل اضطرارياً رغم ذلك والواقع أن هذه التبادلات أمور يقوم بها جماعات لا تتبادل في ما بينها أشياء وحسب، بل تتبادل إلى جانب ذلك لياقات وولائم وطقوسا (...) ونساء وأعياداً، (...) ولقاءات عامة» (Lombard, p. 112).

وجد ماوس الجواب في « معتقد من معتقدات الماووري، وهو معتقد يربط ربطاً وثيقاً بين الموجودات الثمينة المتبادلة، وبين المحتوى الروحي لهذه الموجودات التي تعتبر ناقلة لمانا من يتبادلها سواء كان فرداً أو جماعة يطلق عليها هؤلاء البولينيزيون اسم الهو Hau، وهذه القوة هي التي تتخلل في هذه الموجودات، وهي التي تضطر المرء إلى ردّها فإذا تقاعس عن الرد، فإن هذه القوة المذكورة تنتقم منه عندئذ أياً انتقام، والواقع أن هو الشيء الواحد تكون مفعمة بالمانا، أي بروح الأشخاص القديرين الذين سبق لهم أن اقتنوها » (Lombard, p. 113).

لم يعد البوتلاش يمارس على نطاق واسع في شكله التقليدي، ولكنه لا يزال يمثل موضوعاً هاماً في الأنثروبولوجيا لفهم كيفية تبادل الهدايا في المجتمعات المختلفة، وتأثير هذه الممارسات على العلاقات الاجتماعية والسياسية.

4.5. الهدية عند كلود ليفي ستراوس (C, L, Strauss):

قام كلود ليفي ستراوس بتطوير مفهوم الهدية في سياق أعماله حول الأنثروبولوجيا البنيوية. على الرغم من أنه لم يركز بشكل خاص على الهدية، كما يفعل أنثروبولوجي الهدية، مثل: مارسيل موس. إلا أنه ساهم في فهم المغزى الثقافي للتبادلات والهبات في بعض أعماله، و«سيدرس "بنى القرابة الأولية" (1949)، التي يرى أساسها، في تبادل النساء بين الرجال» (بونت وإيزار، صفحة 110)، أي في فهم قواعد الزواج النمطية لدى الشعوب البدائية، وفي أن التبادل يصبح مرتبطاً بتبادل النساء بدل تبادل السلع والبضائع.

استكشف ستروس العلاقات الاجتماعية من خلال عدسة البنى الرمزية، حيث تناول الهدية في سياق التبادلات الزوجية والتحالف بين المجموعات الاجتماعية. ووفقاً لرؤيته، تنطوي التبادلات الزوجية على نظام معقد من الهدايا، والردود المتبادلة بين المجموعات للمحافظة على النظام الاجتماعي.

أكد ليفي-ستروس على أهمية التحالفات الزوجية للهيكل الاجتماعي، حيث يعتبرها وسيلة لخلق والحفاظ على النظام الاجتماعي عن طريق تجنب الصراعات، لذلك فالهدايا الزوجية، -من وجهة نظره-، ليست مجرد تبادلات اقتصادية، بل هي أفعال رمزية تنشئ وتعزز الروابط الاجتماعية. ينبغي التنويه أن منظور ليفي ستروس حول الهدية يقع في إطار فهمه الأوسع لنظريته الأنثروبولوجيا البنائية، بدلاً من تحليل مفصل لجوانب محددة للهدية. كما يحدث في أعمال مارسيل

موس، باختصار، تكمن إسهامات ليفي ستروس في فهم مفهوم الهدية في دراسته للتبادلات الزوجية كآليات رمزية حاسمة لتشكيل والحفاظ على النظام الاجتماعي.

6. الوظائف الاجتماعية والثقافية للهدية في المجتمع المعمري:

بعد البحث في المجتمع المعمري، اكتشفنا أن قرابة هذه المجموعة ليست دموية بالمعنى النسبي، لكنها قرابة مبنية على فكرة اجتماعية مفادها أن الولي معمر بالعالية حقن دماء المجموعة بعد أن أغارت عليها قبيلة أخرى -كما سبق ذكره-، وبالتالي بقيت فيما بعد وفية لصنيعه معتمدين على الحكايات التي تنسجها النساء حول الشؤم الذي يصيب المرء الذي يبدع في هذا العرف الموضوع من طرف الولي، حيث لا يجوز تجاوز الصداق المعروف، وهو "ربع دينار ذهبي" سواء كانت العروس من طبقة اجتماعية راقية أو أدنى (أي صداق المثل). كما لا ينبغي للعريس أن يقدم لعروسه الهدايا أو أن تأكل من ماله قبل الدخول بها، وهي عادة سجلها إميل درمنغهام بقوله هو «تقليد وجدته ملفتاً ومميزاً في شمال شرق ولاية وهران، وتمتد تداعياته إلى غاية الجزائر العاصمة، إنه عرف سيدي معمر (عرف زواجي)» (Dermenghem, 1954, p. 170).

اعتاد سكان المنطقة تبادل الهدايا المطبخية، كما عبرت مبحوثة أنثى / 15 / 75 سنة، في احتفالات الزواج وغيرها مثل: الطواجين والجفان والمجامر والصحون...، منذ القديم والدليل استمرارية هذه الظاهرة، وكانت الاحتفالات بين الرجال وبين النساء بشكل متميز، وذلك شأنهم شأن أهل المغرب، حيث «كان ينقسم إلى حفلين أحدهما يتم نهراً للرجال، والآخر ليلاً للنساء، وفي كل منهما كانوا يستقدمون المغنيات وضاربات الدفوف والراقصات، ويذبحون ذبيحة أو أكثر كلّ حسب قدراته المادية، ويذكر الونشريسي أن الكثير من أهل المغرب اعتادوا التهادي في الأعراس، فكانوا يتهادون بالدرهم والدنانير والجزور وبعض الأطعمة كالزيت، والقمح والشعير واللحم والفاكهة» (السيد أبو مصطفى، 1992، صفحة 16).

1.6. الرموز الاجتماعية والثقافية المرتبطة بالهدية:

يبدو أن المجتمع المعمري كبقية المجتمعات التي عرفت تحولات وتغيرات، وهي بطبيعة الحال أثرت على طبيعة العلاقات الاجتماعية، وبالأخص في مسألة الرابط الاجتماعي، وقد كان له أثر في طبيعة العلاقات القرابية والجوارية والمصاهرة. كما يبدو أن بعض المظاهر القبلية لا تزال موجودة لكن بصفة غير واضحة مع تحضر معظم المدن، فهي تشبه الأطلال نظراً لتفكك النظام القبلي بسبب

تأثير الاستعمار الفرنسي، لكن ما يميز المجتمع الجزائري على العموم هو انصهار الكثير من المجموعات المتميزة ثقافياً واجتماعياً، خاصة عندما تعمّ فيها فكرة الولاء الوطني للتاريخ والمقدسات الوطنية، فلا يهم من تكون، إذا كان ولاؤك للوطن كبيراً، وانسحب هذا التصور على العلاقات الاجتماعية.

يحيل نظام التهادي في المجتمع الجزائري على العموم والمجتمع المعمري على وجه الخصوص للوجاهة الاجتماعية للأسر وطبيعة تضامنها أو توافقها واسترخاء علاقتها وتفككها، فعدم تقديم هدية معناها انعدام تقديمها من طرفين. وبالتالي سيؤدي لاسترخاء العلاقة أو هي بادرة لزوالها وانقطاعها. لذلك كلما كان عدد الزوار والمعزومين للاحتفال كثيرون، كلما دلّ ذلك على طبيعة الروابط الاجتماعية المستمرة والمتشابكة، وعلى مكانة صاحب الدعوة في المجتمع، كما يمكن أن تحيل للتراتب أو الطبقيّة في بعض المجتمعات، لكن ما هو ثابت في هذه الهدايا المقدمة في أغلب الوثائق التي حصلنا عليها هو نوعاً ما متشابه في الوثائق 2 و 3 و 5 وكانت الهدايا معتبرة مقابل الوثيقتين 1 و 3، وكانت الهدايا بسيطة تحيل -في نظرنا- ربما للتمايز الطبقي.

يبدو أن مسألة التدوين والتسجيل للهدايا عملية مُعقدة، بالرغم من بساطة الوثائق التي حصلنا عليها، وقد حاولنا دراسة قوائم الهدايا في حفلات الزفاف الخمسة (05 أعراس)، والقوائم المدونة، في دفاتر لغرض التذكر. كما أننا لم نكتف بذلك فقط بل قمنا بانجاز المقابلات مع مدوني هذه الوثائق، وحاولنا الاستفسار عن كل صغيرة وكبيرة لعلها تفيدنا في الفهم والتحليل، حيث تقوم إحدى قريبات العروس بتدوين الهدايا مهما كانت طبيعتها، وأحيانا كانت تعلق على بعضها بين قوسين (سواء في لون أو الحجم أو طبيعتها إن كانت جيدة أو تالفة). وبالتالي يمكن القول أن التعليق على طبيعة الهدايا يمثل في حد ذاته تصور المجموعة لقيمة الهدايا ووظيفتها.

1.1.6. عرض محتوى الوثائق:

قبل عرض محتوى الوثائق يستوجب الإشارة إلى ضرورة تلبية الدعوة هي أساس نظام التهادي في مجتمع الدراسة، فلا يجوز رفضها إطلاقاً، وإلا أعتبر ذلك إنقاصاً من قيمة المرء، وإقلالاً من شأنه أو دليلاً على عداوة تحول بينه وبين الشخص الداعي، وأحيانا هي رسالة مشفرة توجي بأن صاحب الدعوة لم يقدّم بواجبه تجاه المدعو، وبذلك يكون أهل صاحب الدعوة أول الملبين والمساهمين في الاحتفال بالمال والمساعدة في إعداد مكان الاحتفال، ويكون حضورهم إكباراً لرابطة الدموية والعلائقية، التي تجمع أكثر مما تفرق، فيقدمون يد العون ويساهمون بالمال المتوفر، ويرفعون من شأن أخيم (فكلمة أخي «خويا» تعني الكثير في المجتمع المعمري)، وثم تتدرج بعدها كلمة من عائلي

(فاميلتي)، ويصبح مصطلحات الأخوة وأواصر الدّم بحاجة للإثبات من خلال الفعل، لذا نجد مساعدة صاحب الحفل تأخذ نصيبها الأكبر من طرف الأهل (الإخوة والإخوة من الرضاعة والأخوة الاجتماعية) ثم الأصهار الذين يلبون دعوة تقديم الهدايا تجديداً لعلاقة المصاهرة واحترامها، وهو ما أكدته كل مبحوثي الدراسة 15، في علاقاتهم مع إخوتهم وأقاربهم الدمويين وأصهارهم، والذي قد يختلف نوعاً عن علاقاتهم مع أفراد آخرين تجمعهم علاقات الجوار والصدقة، فهي مرتبطة بطبيعة الدور الاجتماعي، ولو أن الحديث عن هذه العلاقات قد يتسم بالنفاق والرياء في بعض الأحيان، ليخفي وراء عبارات والكلمات مشاعر العداوة والكراهة والحسد، لأن بإمكان نظام الهدايا أن ينفيه ويدحضه.

- مبحوث 8 / ذكر / 64 سنة «إذا تمّ دعوتنا إلى الحفل كما يجب ووفق الأصول أكيد سنلبي الدعوة وسيكون عيباً مشيناً إن لم نذهب».
- مبحوثة 12 / أنثى / 47 سنة «إذا لاحظنا صاحب الدعوة قد رحب بنا ترحاباً يليق بمقامنا، قدمنا بين يديه الهدية، وإذا لاحظنا أنه لم يهتم بنا غادرنا الحفل والهدية بحوزتنا»

2.1.6. هدايا أقارب الأب (الأعمام وأبناء العمومة):

سجلنا هدايا باهضة الثمن (معادن الذهب والفضة والألماس): 14 خواتم ذهب و05 أساور ذهبية كبيرة و2 متوسطة الحجم بالنسبة للوثيقة 2 و4 و5، في حين لاحظنا وجود خاتمين وأسورة واحدة تقريباً في الوثيقتين 1 و3، وهذا دلالة على المكانة الاجتماعية للشخص المستقبل، ولأسرته ولطبيعة العلاقات الاجتماعية المرتخية بين الطرفين مانح / مستقبل، ومن خلال المقابلات المنجزة أعرب المبحوثين أن الأعمام وأبناء العمومة أقل تآزراً وتضامناً مع أفراد أسرهم، بسبب علاقاتهم التي تكاد تكون معدومة بين الإخوة، وذلك لكثرة الصراعات العائلية بينهم (سببها مشاكل حول تقسيم الميراث أو خلافات حول ملكية الأرض أو أسباب أخرى).

15 قطعة من القماش + قطع كثيرة من الصابون المعطر، قدمت من طرف زوجة العم (عم واحد) في وثيقة 2، ولاحظنا أن المساعدات مادية تقدر بـ حوالي 170 ألف وهو مبلغ مالي في مجموع الوثائق 2 و4 و5 + صابون + حوالي 15 كيلو سكر + مواد غذائية وحلويات، منحت للأزواج في الوثيقة 4 و5 (لكنها أقل مقارنة بهدايا الأصهار).

3.1.6. هدايا أقارب الأم (الأصهار):

جدول 1

مجموع الهدايا المقدمة من طرف الأقارب الأم (الأصهار)

وثيقة 01	01 لباس حمام + حلويات تقليدية + 12 كيلو سكر + مال مقدر بـ 8 آلاف دج وهو مبلغ بسيط جداً + أدوات تجميل + فراش + غطاء. (عدد الأخوال 02، خال وخالة)
وثيقة 02	06 ملابس الحمام + حوالي 50 كيلو سكر + مال مقدر بـ 400 ألف دج، أدوات تجميل + أغذية وأفرشة والكثير من الأواني المنزلية، عدد الأخوال (04) أخوال و (04) خالات) والأبناء وأصهار
وثيقة 03	02 لباس حمام + 08 كيلو سكر + مبلغ 10 آلاف دينار، بعض الأغذية والأواني لكنها بسيطة حسب وصف صاحبة الوثيقة
وثيقة 04	14 لباس حمام، + حوالي 77 كيلو سكر + حلويات من كل الأصناف + كبش + 670 ألف دج، وتذكر مسجلة هذه الوثيقة أنها من كثرة الأشياء نسيت تقييد الكثير من الأشياء، 03 أخوال ذكور و 05 خالات إضافة لأبناءهم وأصهارهم
وثيقة 05	13 لباس حمام + حلويات ومواد غذائية وخضروات + لحم ودجاج + مساعدة مالية مقدرة بـ 550 ألف دج + أواني منزلية 4 أخوال و 2 خالات مع أبناءهم وأصهارهم

المصدر: من إعداد الباحث

ملاحظة: قد نجد أن هناك مجموعات أو أفراد في المجموعة العمرية، حيث لا يلعب الأعمام والأخوال أي أدوار تضامنية أو تآزرية مثال مبحوثي المقابلات 3 و 5 و 7 و 14، والسبب -حسبهم- عائد لمشاكل عائلية أو فساد وانحلال أخلاقهم.

**يمكن تفسير كون هدايا قرابة الأب أدنى من هدايا قرابة الأم، التي قد يعود للعوامل التالية:

التقاليد الثقافية: قد ترجع التقاليد الثقافية لتفضيل جهة الأم في تقديم الهدايا كونها أكثر حميمة وأهمية (قيمة معنوية)، مما ينعكس على كمية الهدايا أو قيمتها المادية.

الدور الاجتماعي للأم: تلعب الأم في كثير من المجتمعات دوراً مركزياً في تربية الأطفال ورعاية الأسرة، مما يجعل أفراد أسرتها أكثر التزاماً بتقديم الهدايا كنوع من الشكر والامتنان، وقد يكون تقديم الهدايا من جهة الأم متوقعاً ومعتاداً أكثر من جهة الأب، حيث تسود الصراعات والنزاعات حول قضايا متعددة.

الوضع الاقتصادي: قد يكون أفراد جهة الأم ميسوري الحال مقارنة بقرابة جهة الأب، مما يؤثر على قدرتهم على تقديم هدايا كثيرة كما أو ثمينة نوعاً.

التراتبية العائلية: قد تكون هناك اختلافات في التراتبية العائلية من جهة الأب وجهة الأم، مما يؤثر على تقاليد تقديم الهدايا، مثال: قد تكون الأسر من جهة الأم أكثر ترابطاً اجتماعية ويظهرون ذلك من خلال تقديم الهدايا.

4.1.6. هدايا الجيران والمعارف:

مكونة من: أموال وهدايا متنوعة (أطعمة، حلويات، أواني منزلية، أفرشة وأغطية...)، وتعلو قيمتها المادية كلما كان الفرد ذا قيمة ومكانة عالية رمزياً (الأقارب المقربين، صديق حميم، رجل سياسي أو رجل دين...). وهي على العموم تمتاز بالبساطة العملية، وتعبّر عن علاقات التقدير والود والاهتمام، وأحياناً تكون ذات طابع شخصي حيث يعرف المانح ذوق واهتمامات المهدى إليه، باختصار غالباً ما تكون هدايا الجيران والأصدقاء نابعة من القلب ومعبرة عن الروابط الاجتماعية والود المتبادل وتساهم في تعزيز العلاقات وتقويتها.

تشكلت هدايا الجيران والمعارف المسجلة في الوثائق 1 و2 و3 و4 و5 من العناصر التالية:

دهن (جبن بقر) + قصعة (جفنة) + زربية (حصير) تقدمها امرأة عجوز في الغالب + ساعات حائطية، العديد من طواقم الكؤوس (مشروبات غازية) وطواقم فناجين القهوة + العديد من الأفرشة + أقمصاة النوم. صابون، أدوات الحمام وملابس، أواني منزلية (صحون وطناجر وقدر...)، وسائد مطرزة + مطرزات تزيينية.

يقدر المال الممنوح نقداً في الغالب ما بين 200 دج إلى 3000 دج (مبالغ رمزية) للفرد الواحد + سكر (كيلو أو 02 كيلو أحياناً للفرد)، وقد يتجاوز هذا المقدار في حالات أخرى، حسب الوضعية المادية والاقتصادية للزائر (ة) وترتفع قيمتها المادية كلما كان المانح قريباً قرابة دموية أو مصاهرة.

سجلنا تقديم هدايا متنوعة مثل: القصاع (الجفان) والحصائر (السجاد) أو الزرابي، وكذلك الجبن (الدهان)، هي هدايا ذات أهمية اقتصادية، حيث يمكن مقارنتها بهدايا بعض القبائل الأمازيغية المغربية، حيث كانت «تقدم للعروس الشابة هدية النافخ (Unfegh) (المجمر) أو الكانون عندنا، وسيلة كبيرة تدل على مجتمع رأسماله قليل وضعيف» (Laoust, 1983, p. 41)، غير أنها ذات أهمية لدى الزوجين في بداية حياتهم الزوجية، وداومت الأجيال اللاحقة على تقديمها كخاصية أمان للمحافظة على الأصول في الذاكرة الشعبية الجماعية وبشكل دوري لدى كل فرد في المناسبات والاحتفالات المختلفة، فهو يمنح الهدايا ليستردها فيما بعد، وهو ما يذكرنا بدراسة مالينوفسكي

(حلقة الكولا) في مجتمع التروبرياندا، عن مجموعتين من القبائل الأولى تملك العقود، والأخرى تملك الأساور، تتبادلان الهدايا في أشكال حفلات طقسية وجنسية بين الرجال والنساء، في حركة منتظمة في حلقة يجمعهم زمان وفضاء واحد، فالفرد أو القبيلة تعتبر الاندماج في هذا التبادل الحلقي الذي يضعه دائما في ثنائية (مانح / مُستقبل للهدية)، وهناك قوة خفية تجعله يقبل الهدية ويردها أي يرجعها.

2.6. أنماط الهدايا عند المجموعة المعمرية:

كنا نتساءل طيلة الشروع في البحث الميداني عن: كيفية تصنيف الهدايا؟ ما هي الرموز أو المعاني التي يُعتقد أن الهدايا تحملها في ثقافة المجتمع المحلي؟، وهل هناك نوع معين من الهدايا تعتبر أكثر قيمة في ثقافتهم؟ ولماذا؟، وانطلاقا من الملاحظة بالمشاركة والمقابلات والوثائق الخمسة (05)، حاولنا تصنيف أنماط الهدايا لدى المجموعة المعمرية بصفة عامة إلى:

أولا/ نوع الهدية: تنقسم لنوعين: هدايا مادية، وتشمل الأشياء الملموسة مثل: الطعام، الأدوات والأواني والمجوهرات، وهدايا معنوية، وتشمل الأمور غير الملموسة مثل: الخدمات والدعم العاطفي والمعارف.

ثانيا/ قيمة الهدية: تنقسم لنوعين: هدايا ذات قيمة عالية (نادرة، وباهظة الثمن)، وهدايا ذات قيمة منخفضة (شائعة ومنخفضة التكلفة).

ثالثا/ غرض تقديم الهدية: تتمثل في هدايا احتفالية تهدف لتعزيز العلاقات الاجتماعية والعائلية وتمتينها، وهدايا احتفالية، يتم تقديمها في الأعياد والاحتفالات والولادة، وهدايا اقتصادية، بغرض تبادل المنافع الاقتصادية مثل: تبادل المنتجات الزراعية بين الفلاحين أو المنتجات الصناعية.

رابعا/ السياق الثقافي: مرتبط بطبيعة التغيرات الاجتماعية والثقافية (هدايا تقليدية وأخرى حديثة).

خامسا/ الدور الاجتماعي: للهادي والمُهدى إليه: تشمل الهدايا بين أفراد الأسرة مثل: هدايا بين الأبناء والآباء أو بين الأزواج، وهدايا بين الأصدقاء أو الزملاء، وأخيرا الهدايا الرسمية المقدمة في سياقات رسمية بين أفراد ذوي مناصب سلطوية.

سادسا/ التوقيت: يمكن أن نقسمها لنوعين هدايا موسمية: تقدم في أوقات معينة من السنة، وهدايا غير موسمية: تقدم في أي وقت دون أن تربط بمناسبة معينة.

إن تقديم الهدايا حسب كلود ليفي ستراوس «هي تعبير رمزي عن شيء أكثر تجريداً وهو شبكة العلاقات الاجتماعية التي تربط أعضاء المجتمع المعني بعضهم ببعض» (ليش، 1985، صفحة 142)، لذا نجد من خلال ما تقدم أن الهدية داخل المجتمع المعمري لها دور تكاملي تضامني اجتماعي يُنظر إليها نظرة احترام وتقدير، وتعظيم الشأن، وهي حسب رولان بارت "نظام مشفر، لغوي للتعبير عن علاقات التكامل والتعاون، لذا نجدها أكثر رمزية واجتماعية منها كقيمة اقتصادية، لأن قيمتها المادية بسيطة لكنها تحمل في طياتها أخلاق تآزرية ومشاعر عاطفية تساعد على استمرار الروابط الاجتماعية وتمتينها. وعلى هذا الأساس تساءل موس حول ما الذي يجعل المجتمعات التقليدية تفرض أن ما يمنح كهدية يعاد إلى صاحبه؟ وما هي القوة المجبرة الموجودة في الهدية؟ التي تتحكم في الإهداء والاستقبال والإعادة؟.

فالهدية هي أكثر من عقد بسيط بين الهادي والمستقبل، وكلمة إجبار (Obligation) لا تعني الإلزام أو الإكراه على الإرجاع، بل تعني نظاماً أخلاقياً محضاً (الشرف والإلزامية)، تدل على شكل مؤقت لأخلاق تعاقدية كما تعطي نظرة حول الواقع الاجتماعي المعاش في شموليته الدينامكية، وهي أشبه بضرورة توفر هاذين العنصرين «الأساسيان اللذان يتعلقان بالبوتلاش في حدّ ذاته، وقع تأكيد حضورهما بكل وضوح: عنصر الشرف والهيبة و"مانا" (Mana) الذي تمنحه الثروة، وعنصر الإلزامية المطلقة لمبدأ رد الهبة مخافة خسارة "مانا"، هذه السلطة وهذا الطلسم، وهذا المصدر للثروة الذي هو السلطة نفسها» (موس، الصفحات 46-47)، ومن خلالها يتحرك المجتمع في فعل اجتماعي شامل، فنلاحظ مثلاً مجتمع الطوارق هدايا النعال (Sandales) في حفلات الزواج في الهقار، حيث «تدل على بساطة حياة الترحال وظروفها، وعادة تقديم الجفنة (القصة) التي يعتبرها أهل العريس وأصدقائه واجب بالرغم من أنها ليست إلزام» (كديدة، 2018، صفحة 494).

بناءً للتصنيف الذي اشرنا إليه سابقاً- يمكن أن نميز بين أنماط الهدايا لدى المجموعة المعمرية، بالأخص في حفلات الزواج والميلاد وأثناء الوفاة أو المرض، كما يلي:

1.2.6. هدايا غير ملزمة الإرجاع:

بعض الهدايا لا تلزم ضرورة إرجاعها من قبل النساء بالأخص حينما يحضرن للعزاء في منزل فرد متوفي، حيث يجبرن على العزاء في بيوت أسرته أو أبنائه أو عائلته وكل الأفراد الذين تربطهم معهم علاقات اجتماعية (زواج، مصاهرة، جوار، صداقة...)، وهو ما يكلفهم مادياً ورغم بساطة الهدية

المتمثلة في حبات من البيض أو كيلو من السكر، لذلك تحرص النسوة على تعزية أهل الميت في بيته مباشرة لكي تتفادى جبرية تقديم هدايا لأهله ومعارفه. وهذا النوع من الهدايا ضرورية مثل: الهدايا التي تقدم في حفلات الختان والميلاد (البيض والسكر والمال نقداً) والهدايا المقدمة أثناء زيارة المرضى (الفواكه والمأكولات وبالأخص التفاح)، حيث يقال بالمثل الشعبي واش حال المريض قبل التفاح، وهدايا المرأة النافسة (في فترة النفاس)، وهي أطعمة خاصة (دجاج محشو بالأرز والتوابل، العيش بالدجاج، خبز الحرشة، خبز المبسس مصنوع بالتوابل بالأخص الفلفل..). إنها أطعمة يُعتقد أنها تمكن المرأة النافس من الشفاء بسرعة، إضافة إلى هدايا أخرى: سكر، بيض، هدايا ألبسة للمولود، مبالغ مالية حسب ما أهدهته النافس لنظيرتها أثناء وضعهن لمولود جديدة، أو أثناء وفاة المولود، يكون التآزر والتعاطف مشحون بالحزن والتراحم.

2.2.6. هدايا ملزمة:

هي هدايا واجبة غير أن قيمتها المادية غير مهمة، فهي تبدو رمزية، وكل فرد يقدمها حسب مكانته الاجتماعية ووضعيته المادية، ولأن الأهم هو بقاء علاقة (الهدية واستقبال الهدية ثم إعادة أو الإرجاع سواء بالمثل أو أحسن منها)، حيث يقول مبحوث/04 ذكر/ 49 سنة «من عندي ومن عندك تنطبع بالصح غير من عندي تنقطع» (إذا كانت علاقة التهادي بيننا مستمرة ومتبادلة من الطرفين تدوم، ولكن إذا كانت من طرف واحد ستنقطع)، ومن هذه الهدايا هدايا الزفاف أو الأعراس وتكتسي طابع التضامن مع العريس، وهو ما لاحظناه في «الدعوة وتلبية الدعوة دورها في الحد من الصراعات بين الأفراد» (زيان، 2020، صفحة 106)، لاحظنا من خلال المبحوثات أن انخفاض قيمة الهدية قد تدفع المرأة لقطع علاقتها مع صاحبها إذا كانت قيمتها أقل بكثير من الهدية التي أهدتها لها.

3.2.6. هدايا لا تُعاد للمهدي أو المانح:

إن الهدية التي تقدم للمرأة المتسولة (طقس المساوسة Rite de demande le pardon) (ZIAN, 2019, p.84)، فهي مفروض على المرأة، لأنها لا تنتظر منها تعويضاً مادياً كون النساء يعلمن أن هذه المرأة بحاجة للشفقة والمساعدة، كونها اعتدت على عرف الزواج، وهي تتسول من المجتمع ليكون شاهداً على خضوعها واستسلامها، وبالأخص النساء، فيقدمن لها بعض النقود من 5 إلى 10 دينار أو صاع أو صاعين من الدقيق أو الحبوب من قمح وشعير (ويقدر الصاع بأربعة حفنات)، لكن «الهدية التي لا تعاد يمكن أن تصبح ديناً أو إلزاماً مستديماً».

4.2.6. الهدايا غير المقبولة:

لا ينبغي للمرأة أن تتقبل هدايا من طرف العريس مهما كانت قيمتها المادية أثناء فترة الخطوبة، فكل مجتمع له خصوصيته معينة في نظام التهادي والهدايا، وهو يحيل-حسب رأينا- لمفهوم التضامن الآلي أو العضوي بين مختلف المجموعات، غير أن تقدير تحوّل المجتمع من مجتمع آلي لمجتمع عضوي يستوجب إحصاءات لمتغيرات الحديثة كخروج المرأة للعمل، التداول النقدي... وغيرها، وهذا النوع من الهدايا في نظر مبحوثات الدراسة بمثابة شن نزاع ضد العادات والتقاليد التي فرضها عرف الزواج المعمري، وهي امرأة مخالفة لتعاليم الولي سيدي معمر، لذلك تتبارى النساء للاحتفاظ بلقب امرأة معمريّة، أمّا المرأة المخالفة، فتجبر على الالتزام بالعرف، ودفع دين مخالفته، وردّ الهدية بأكثر مما حصلت عليه، كون أثارها تنعكس على صحة المرأة مثل: اللعنة أو دعوة السوء والشر (تصاب بالمرض أو تصاب بالعقر أو العى...)، وهي تندرج ضمن المعتقدات السائدة بين النساء الحارسات على استمرارية عادات الزواج المعمري.

7. الطعام كوسيلة للضيافة:

طرحنا السؤالين التاليين على عينة البحث: كيف يستخدم الطعام في المجتمع المحلي كوسيلة لتعزيز العلاقات الاجتماعية والمشاركة؟ وهل يمكن وصف بعض الطقوس التي تشمل تبادل الطعام؟، وكانت الأجوبة في غاية الأهمية، حيث أظهرت تنوع المؤكلات والأطباق من منطقة إلى أخرى حسب الموارد ونمط الحياة والمناخ « لتنوع بذلك وتعدد صور التعبير الرمزي، فتناول الطعام في المناسبات المختلفة له مضمون رمزي شعائري كبير عبر التاريخ » (HONG, 1999, p.89)، وأبدى بعض المبحوثين عن نيتهم وأهدافهم في وصف تبادل الطعام وكرم الضيافة بين أفراد المجتمع والزوار الأجانب، وتقاسمه بطريقة إرداية -إلزامية بقول مبحوث 02/ ذكر/ 44 سنة « يجب علينا أن نحضّر الطعام للضيف وإكرامه واجب، وهو دليل على الاحترام الذي لا بد منه » .

ينتج عن تقاسم الطعام والتشارك فيه تضامناً دينياً داخل المجتمع، ما يشبه الوحدة بفضل فضيلة الطعام أو المطبخ يصبحون شركاء الطعام «إخوة كأن بينهم قرابة فعلية يقول فيرنو في هذا السياق عن ما يمثله الطعام عند الإغريق أن الموقد والوجبة والأطعمة لها، كذلك وظيفة فتح الحلقة الأسرية عن من في الدار، ودمجه في المشترك العائلي، ففي الموقد يهرع طالب النجدة، عندما يطرد من

غيره يأوي في الخارج باحثاً عن الانضمام إلى جماعة جديدة بغية إعادة إيجاد التجذر الاجتماعي والديني الذي فقده» (جاد الله منال، 1997، صفحة 196).

فللطعام وظيفة مقدسة، فهو ضرب من الرضاعة المشتركة يترتب عنها ضرورة احترام مشترك الطعام ببعضهم، حفظ العرض، والتحالف، ويقال لمن خان هذا التحالف أنه يصاب بقوى الشر المجهولة «دعوة الشر» التي تصيب المخادع والمنافق، فيقال بالمثل الشعبي «اللي يأكل الملح ويخدع صاحبه، يطيح شره في الركائب»، (بمعنى أن من يتناول ملح الطعام ويخدع صاحب الدعوة يقع شره على ذريته وأهله)، وإذا تم دعوة أحدهم إلى طعام أو مأدبة فعليه أن يلي الدعوة مهما كانت الظروف، إلا إذا كان الطعام مشكوك في مصدره أو تصاحبه أشياء محرمة، خاصة في حفلات الزواج، فإنه «فرض على كل من يتزوج أن يولم بما أقل أو أكثر، وفرض على كل من دُعي إلى وليمة أن يجيب إلا بعذر، فإن كان مُفطراً فرض عليه أن يأكل، فإن كان صائماً فليدع الله لهم، فإن كان هناك حرير مبسوط أو كانت الدار مغضوبة أو كان الطعام مغضوباً أو أن هناك خمر ظاهر فليرجع ولا يجلس» (ابن حزم، 1996، صفحة 771).

يظهر من خلال الملاحظة بالمشاركة أن هناك أنواع من الأطعمة في المجموعة المعمرية يرضح لموسمية الفصول، فهناك الأطعمة التقليدية التي تعرف بها كل بيت معمر مثل: البغير الملبس، المدلوك أو الملو، الحارشة أو الفطيرة في فصل الربيع، وهناك السلق والخيز، وفي فصل الصيف تتألف المأكولات من أطباق خفيفة سلاطة، شطيطة والجواز المكونة من البصل والطماطم والبيض والطماطم والفلفل. أما أطباق الأطعمة الموجودة على مدار السنة، فهي مكونة من الثروة السمكية التي تزخر بها المنطقة كسمك السردين والبوغا والصار والمافرون. وأثناء الأعراس تنعكس بساطة عادات الزواج في تقديم الكسكسي (يسمى الطعام) والشربة والسلطة، وهذا ما يلاحظ في جل الأعراس.

8. اللباس كرمز للهوية والمكانة الاجتماعية:

يعبر اللباس عن الثقافة والقيم الاجتماعية للمجتمعات، ويمكن أن يعكس الزي التقاليد، المعتقدات الدينية، والتاريخ الثقافي، على سبيل المثال، تختلف الأزياء التقليدية بشكل كبير بين الثقافات وتعبر عن التراث الثقافي الفريد لكل مجتمع، كما أنه يعكس الوضع الاقتصادي والطبقي للأفراد، كونه يستخدم للتمييز بين الطبقات الاجتماعية المختلفة، الأزياء الفاخرة، قد تشير إلى الثروة والمكانة العالية، بينما قد يعكس اللباس البسيط أو العملي لطبقات اجتماعية دنيا. فكيف يعبر

اللباس عن الهوية الثقافية والمكانة الاجتماعية في المجتمع المدروس؟ هل هناك أنواع معينة من الملابس تستخدم في مناسبات خاصة؟ وما هي رمزية الألوان؟.

لاحظنا من خلال المقابلات أن ألبسة العرس عند النساء متنوعة تنوعاً ملفت، بين ألبسة محلية (العباءات والقندورات والبرانيس والقشاييات...) ووطنية مثل (الشدة التلمسانية والقفطان العاصمي...) وعالمية (ألبسة غربية وهندية...)، وهذا يعكس انفتاح المجموعة وعدم انغلاقها واستمراريتها، كما يحيل ربما لعادات وتقاليدها ومقدورها تغيير طبيعة الألبسة المحلية.

تعتقد بعض الدراسات التاريخية والأنثروبولوجية أن اللون جذب الإنسان البدائي الذي كان مصاباً بالعمى وأول لون إستهواه هو الأبيض ثم تلاه الأخضر ثم لاحظ التناقض القائم بين الأبيض والأسود، وهكذا أصبح اللون الأبيض رمزاً للعفة والطهر، والأسود لوناً للحزن والموت، والأخضر للأمل (الخرق من القماش التي توضع على أضحية الأولياء)، الأحمر للعنف والدم والأصفر للحسد والأزرق للوفاء... وغيرها.

لقد رافقت الألوان -في نظرنا- تطور الأزمنة الحضارية وتختلف من مجتمع لآخر وتتلاءم مع الطقس أو غرض معين وهذا طبقاً لعلم الآثار. ولو عدنا لمجتمع البحث لوجدنا رمزية القميص الأبيض مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالدين والقيم الأخلاقية التي تجعل العفة الجنسية إحدى متطلبات المجتمع، أما رشه ببقع الدم الحمراء، فهو ناتج عن فعل إفتراء مقدس ضمن زواج مرسوم من طرف المجموعة، وهناك لباس المساوسة التي تدل على التحريم والتقديس، وهي فعل التوسل والسياسة لاسترجاع ما تم انتزاعه من العروس المخالفة لتعاليم الزواج، كونها طالبت بصدّق يتنافى مع صدّق المرأة المعمرية، والذي يتم تكييفه كل سنة حسب المتطلبات المادية والاقتصادية. كذلك هناك الوشاح الأحمر (المحرمة) التي تربط في ناصية كل من العروسين لتذكيرهما بالدور المرجو منهما بعد الزواج من تقسيم لحالات عاطفية وفكرية معينة وتقسيم للأدوار أما رمزية البرنوس الأبيض، فيرمز للجدد الرمز للمجموعة القرابية المنتمية للولي الصالح سيدي معمر ويرمز للرجولة والنقاء والفروسية.

خلاصة القول أن اللباس واللون تأثيرات نفسية على الإنسان، إذ لهما القدرة على الكشف عن شخصية الإنسان وعلى نمط حياته على سبيل المثال لاحظنا تشبث بعض المجموعات بألوان معينة على حساب ألوان أخرى سواء بسبب البيئة الجغرافية أو المناخ كلون التربة أو زرقة البحر، أو خضرة الطبيعة، فمثلاً يختلف سكان الشمال والجنوب في ارتداء الملابس، فأهل الصحراء يرتدون ملابس

بيضاء وزرقاء لأنها لا تمتص حرارة الشمس أو ألوانا بألوان مختلفة مزركشة تعكس التأثير الجوّاري بالثقافات الإفريقية التي تستوحى من الألوان من الطبيعة أزهار، حشرات أشجار...

خاتمة:

بناءً على ما تم عرضه في الدراسة، يمكن استنتاج أن التقاليد والعادات في المجتمع المعمري الجزائري تعكس قيماً اجتماعية عميقة وتعاوناً متبادلاً بين أفرادها، من خلال ممارسات مثل التهادي وتبادل الهدايا خلال المناسبات الاجتماعية، ويتجلى اندماج الأفراد وتعزيز الروابط الاجتماعية والأسرية، كما تظهر الهدايا بمختلف أشكالها، سواء النقدية أو المعنوية، كرمز للتقدير والاحترام بين الأفراد وبين الأسر والأقارب والأصدقاء والجيران، وبإمكان الهدية كشف القناع عن العلاقات المصطنعة التي تتسم بالكراهة والحقد والتظاهر بالاهتمام والمحبة.

يعكس نظام التهادي التقاليد الاجتماعية في الزواج والاحتفالات الأخرى مع تعدد الأبعاد الاجتماعية والثقافية في المجتمع الجزائري، حيث تتجاوز هذه التقاليد الحدود النسبية وتصل إلى أبعاد اجتماعية أعمق تعزز الانتماء الثقافي والاجتماعي.

في النهاية، تبقى هذه الممارسات تراثاً حياً يعبر عن تاريخ وثقافة المجتمع المعمري الجزائري، وتعزز الروابط الإنسانية والتضامن بين أفرادها، مما يجعلها جزءاً أساسياً من هويتهم الاجتماعية والثقافية المتميزة.

قائمة المصادر والمراجع:

المؤلفات / الكتب باللغة العربية:

1. ابن حزم أبو محمد. (1996). معجم المحلى تصنيف وإعداد: محمد المنتصر الكتاني. بيروت: دار الجيل.
2. بونت بيار، وإيزار ميشيل. (2006). معجم الأنثروبولوجيا والأنثروبولوجيا. لبنان: مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
3. الخطيب محمد. (2020). النظرية الأنثروبولوجية. دمشق: دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع.
4. السيد أبو مصطفى كمال. (1992). جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوي المعيار المعرب للونشريس. مصر: مركز الإسكندرية للكتاب.
5. جاد الله منال عبد المنعم. (1997). الاتصال الثقافي، دراسة أنثروبولوجية في مصر والمغرب. مصر: منشأة المعارف بالإسكندرية.
6. ليش إيدموند. (1985). إيدموند ليش. كلود ليفي ستروس. البنيوية، مشروعها الأنثروبولوجي (تر: شاكور ديب). بيروت: دار النهضة العربية.
7. موس مارسيل. (2011). بحث في الهبة شكل التبادل وعلته في المجتمعات التقليدية ترجمة المولدي الأحمر مراجعة عروس الزبير. لبنان: مركز الوحدة العربية.

8. Dermenghem, E. (1954). le culte des saints des Pislam maghrébin. France: Gallimard.
9. HONG, S. M. (1999). Habitus corps, Dominations sur certains présupposés philosophique de sociologie de pierre Bourdieu. Paris: Harmattan.

10. Laoust, E. (1983). Noces Berbères. Les Cérémonies du Mariage au Maroc. Paris: Ed la boîte a Documents.
11. Lombard, J. (1998). Introduction en ethnologie. Paris: Armand Colin.

الأبحاث في المجالات العلمية / المقالات:

12. زيان محمد. (2020). الطعام والرباط الاجتماعي في مجتمع محلي متوسطي دراسة أنثروبولوجية - الشلف، الجزائر. الأكاديمية للدراسات الإنسانية والاجتماعية، 110-102. الرابط: <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/108729>
13. زيان محمد. (2022). زواج سيدي معمر بمدينة تنس بداية زوال عادات أمام واقع متأزم، قراءة أنثروبولوجية. دراسات في التنمية والمجتمع، 75-65. الرابط: <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/176466>
14. مبارك، كديدة محمد. (2018). كديدة محمد مبارك، نظم ومميزات العمل الخيري والتكافل الاجتماعي في مجتمع أهقار (لمحة تاريخية). الاجتهاد للدراسات القانونية والاقتصادية، 499-484. الرابط: <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/60925>
15. ZIAN, M. (2019). les femmes et la domination masculine dans les traditions de mariage de sidi Mâamar Ténés-chlef, Algérie. Dialogue Méditerranéen, 72-87. Le lien: <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/83761>